اللسانيات والدراسة المعجمية للشعر

Linguistics and the lexical study of poetry

إعداد : هشام حسَنوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة القاضي عياض – مراكش

تاريخ الاستلام: 2024/3/17 تاريخ القبول: 5/4/ 2024 تاريخ النشر: 2024/4/15

الملخص:

لقد حققت النظريات اللسانية الحديثة إنجازات علمية قيمة، وقدمت فائدة كبيرة في إعادة قراءة التراث اللغوي العربي تكشف عن ثرائه، لذلك عني مجموعة من الباحثين العرب بإعادة قراءة التراث الشعري العربي وفق هذه النظريات والمناهج اللسانية الحديثة؛ لما وجدوا في ذلك من مواكبة للعلوم والنظريات الحديثة، دون المساس بالإرث اللغوي الكبير الذي خلفه أولئك الشعراء وعلماء اللغة خلال عصور الازدهار الأدبي، ويأتي هذا البحث لفحص بعض المصطلحات والنظريات الحديثة التي كانت لها جذور لم ترق إلى مستوى النظرية عند العلماء اللغويين العرب، لكنها كانت ذات قيمة علمية كبيرة، على الرغم من أن أصولها لم تتوطد في الثقافة الغربية إلا في العقود الأخيرة من القرن الماضي، هذه المصطلحات والنظريات تجلّت في اللسانيات الحديثة من خلال صياغة المعجم الشعري والنظرية المعجمية.

الكلمات مفتاحية: المعجم الشعري، النظرية المعجمية، المعجمية الاجتماعية، الشعر.

Abstract

Modern linguistic theories have achieved valuable scientific achievements and have provided considerable benefit in re-reading the Arab linguistic heritage that reveals its richness. Therefore, a group of Arab researchers have read the Arab poetic heritage in accordance with these modern linguistic theories and approaches. In keeping with modern science and theories, without prejudice to the great linguistic legacy of these poets and linguists during the ages of literary prosperity, This research examines some of the modern terminology and theories that had roots that did not rise to the level of theory among Arab linguists, but were of great scientific value, although their origins were not consolidated in Western culture until the last decades of the last century, these terms and theories were manifested in modern linguistics through the formulation of poetic dictionary and lexical theory.

Keywords: poetic dictionary, lexical theory, social lexicography, poetry.

المقدمة:

إن المتتبع للنقد الأدبي في القرون الأولى الهجرية – خاصة القرنين الثاني والثالث – يلاحظ أن أهم ما شغل مؤسسي علم الشعر، هو البحث عن الأصول النظرية لصناعة الشعر، لذلك اهتم النقاد والبلاغيون القدامى بطبيعة اللفظة الشعرية وخصوصياتها المميزة، ووضعوا لها شروطا تضمن فصاحتها وقدرتها على التأثير، إذ ألحوا على أن تكون حلوة مستعذبة، غير عامية ولا سوقية مبتذلة، وبقدر ما دعوا إلى تجنب الركيك والخنث والسفساف من الألفاظ، وشددوا على ضرورة الابتعاد عن المهمل والمتقعر، وهو ما كانوا يطلقون عليه الغريب والوحشي أو الحوشي. وبهذا لم يغفلوا الإشارة إلى تطور ألفاظ الشعر تبعا للتغيرات الاجتماعية الناتجة عن تعاقب الحقب والأزمنة، وانتقال الناس من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر.

1.مفهوم المعجم الشعري:

على الرغم من أن النقاد القدماء في القرون الأولى الهجرية – في حدود ما بلغنا من أعمالهم – لم ينصوا على مصطلح "المعجم الشعري" الذي ظهر حديثا، ولكنهم عرفوا مضمونه عند دراستهم لألفاظ الشعر والشعراء، وتظهر معرفتهم للتمييز بين المعجم الشعري عن غيره عند تعرضهم لطبيعة اللفظ وخصوصياته المميزة، يقول الجاحظ: "ولكلّ قوم ألفاظ حظِيتْ عندهم. وكذلك كلّ بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكلّ شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهجَ وألف ألفاظا بأعيانها؛ ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللّفظ".[1] فالجاحظ بهذا القول ميّز بين نمطين من المعجم، المعجم الشعري ومعجم النثر الفني.

1 الجاحظ: الحيوان، (حظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس)، مج 2 الجزء 3، ت. عبد السلام هارون، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى 2015، ص: 169.

وبهذا بدأ وعي الأقدمين بتمييز المعجم الشعري عن غيره منذ القرون الهجرية الأولى، كما تكشف عن ذلك إشارات مبثوثة في كتبهم تكشف عن تصور عام واسع لهذا المعجم.

ولعل محاولة ابن رشيق القيرواني أوضح ما وصل إلينا بعد هذه المرحلة، تبين مفهوم المعجم الشعري، نظرا لكونه من مؤسسي التفكير النقدي النظري للشعر في بداية القرن الخامس الهجري، حيث حدد في كتابه (العمدة) المعجم الشعري قائلا: "وللشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكُتَّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرّف باستعمال لفظ أعجمي فيستعمله في النُّدْرَة، وعلى سبيل الخَطْرَة، كما فعل الأعشى قديما، وأبو نواس حديثا، وإنما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وضع له، وبنى عليه، لا ما سواه".[2] وهو في كلامه هنا لا يترك اللغة ملكا مشاعا بين الفنون الأدبية جميعها من شعر وخطابة وأمثال وكتابة، بل يتحدث عن اصطلاح الكتاب.

ويرى البلاغي ابن سنان الخفاجي أنه "من وضع الألفاظ موضعها: ألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب: ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم، لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة، وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة"[3].

---

[2] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (باب في اللفظ والمعنى)، ت. محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط2، 1955، 128/1.

[3] ابن سنان خفاجي: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط 1- 1982، ص 166.

وبهذا يمكن القول، إن موقف النقاد القدامى من قضية المعجم الشعري في استقلاله أو تداخله مع مجالات أخرى، قد تحدد استنادا إلى النماذج الإبداعية التي اعتمدوها في عملية الاستقراء التي وجهت تنظيرهم النقدي، فالذين ارتكزوا على الشعر القديم قالوا باستقلال المعجم الشعري وتميزه، والذين نظروا إلى الشعر المحدث أو المولد ذهبوا إلى إمكان استعارة الشعر – أحيانا– ألفاظ أهل المهن ومصطلحات العلوم والفنون، وإن كانت مكملة تدفع إليها الضرورة التعبيرية، ولا تشكل إلا حيزا ثانويا إلى جانب المعجم الشعري الموروث المتميز بأصالته.

ونخلص مما سبق، أن المعجم الشعري يقصد به تلك المفردات/الألفاظ النشطة التي يُشكل منها الشاعر قصائده، والتي لا تفتأ تتردد بشكل جلي في إبداعه الشعري، ومن ثَمَّ النظر إلى تلك الألفاظ/المفردات في علاقاتها المتواشجة بالتركيب النحوي والبلاغي والإيقاعي، بما يفيد تداخل العناصر وتكاملها جميعا من أجل تقديم المعاني وبناء الدلالات في الإبداع الشعري، مما يجعلها تمثل رموزا للثقافة من جهة، ومن ثمة الشاعر والعالم والوجود .

وقد عنيت بعض التيارات اللغوية الحديثة بالمعجم الشعري عناية واضح، وأجدرها بالذكر، تيار براغ والشكلانيون الروس، ومنهم ياكسبون الذي ركز على الوظيفة الشعرية للغة التي هي موجهة نحو الدليل نفسه، وهذا الاهتمام بالدليل وجّه الدراسات الشعرية نحو الإيقاع والنبر والوقف، والرمزية الصوتية؛ أي كل ما يتصل بالكلمة وباللعب بها[4] .

[4] انظر: محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د.ت)، ص 62.

ويذهب جون كوين إلى أن ما يجعل "الشاعر شاعرا لا لأنه فكر أو أحس، ولكنه لأنه عبّر، وهو ليس مبدع أفكار، وإنما هو مبدع كلمات، وكل عبقريته تكمن في اختراع الكلمة، فوجود حساسية غير عادية لا يخلق شاعرا كبيرا"[5]. فأهمية الشاعر عنده تكمن في كيفية التعبير عن تجربته الشعورية عن طريق الكلمات التي تناسب المقام والمقال.

ومن التصورات التي تعضد موقف "كوين"، تصور صلاح فضل الذي يرى أن نجاح المعجم الشعري رهين بما تتضمنه وتحمله الألفاظ من طاقات كامنة؛ لأن مهمة الشاعر عنده هي "تعرية اللغة واكتشاف القيمة التعبيرية في كل أجزائها التي تغطيها عادات الاستعمال اليومي، وإبراز العناصر الجمالية، حتى في تلك المناطق المحرمة من اللغة التي درج الناس على تأثيم من يتعرض لها[6].

وقد لاحظ محمد مفتاح في هذا الصدد أن الشعر قد يخرق بعض القواعد، فيقع التقديم والتأخير وربط صلات واهية بين الأشياء، يقول: "إن الشعر يخرق القوانين العادية التركيبية، والتداولية والمرجعية، ولكنه في نفس الوقت يخلق قوانينه الخاصة به، فالشعر يستند إلى قوانين اللغة العامة، ولكنه يثور عليها أيضا، ولذلك فإنه يجب مراعاة هذه الثورة عند استكناه النص الشعري بتجاوز ما يوحي به ظاهره إلى خبيئه، ولكن لا لنبذ الظاهر نهائيا، وإنما يجب الجمع بينهما"[7].

---

[5] جون كوين: بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1990، القاهرة، ص 48-49.

[6] صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1980، ص 399.

[7] محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د.ت)، ص 68.

بهذا المعنى، فكل شاعر إنما يختار هذه الألفاظ اختيارا واعيا مقصودا؛ قصد نقل تجربته الشعورية بطريقة لا يمكنها أن تتردد في إبداعه الشعري من قصيدة لأخرى، لأنه ليس هناك طريق إلى تشييء الكون والفكر والثقافة والأحاسيس إلا عبر هذه اللغة وعن طريق هذه المفردات التي يوظفها الشاعر، لأنها هي التي تجسد أثر الخارج والداخل على لغته.

فالألفاظ موجودة قبل الشاعر – كمواد أولية – لكن الشاعر ينسقها وينظمها بطريقة محددة يخرجها من عاديتها ليجعلها بالتواشج مع سواها ألفاظا شعرية متميزة، وذلك بطريقة التركيب وبالمساق الذي ترد فيه؛ "لأن المبدع في استعماله للكلمة يبعث فيها قدرة روحية"[8]. والشعراء جميعا يتعاملون في شعرهم مع مادة واحدة، وهي اللغة مفردات وتراكيب، ولكننا نجد بعضهم أكثر فنية من الآخرين، لا من حيث ألفاظ هذا الشاعر أحسن ولا أجمل، ولا أرق ولا أعذب، إلى آخر هذه الصفات، بل من حيث إن طريقة بناء هذا الشاعر للألفاظ تختلف عن طريقة بناء الآخر، واختيار هذا يختلف عن اختيار ذاك، وقدرة خيال هذا الذي يتخذ التراكيب مادة له تختلف عن اختيار ذاك"[9].

ويكمن دور الشاعر بأن يبدع بما يملكه من حظ في البراعة وقدرة على توظيف الإمكانات اللغوية في إنشاء بنائه وتسخير كل ما يراه لتأسيسه وتأمين تماسكه، ويتحدد حظه من الفن والشاعرية بقدر ما يملكه من براعة في استغلال الألفاظ، فتمنحه خصوصية شعرية تجعله يتميز عن غيره.

[8] عيد رجاء: لغة الشعر، ص 114.

[9] محمد حماسة عبد اللطيف: اللغة وبناء الشعر، دار غريب، الطبعة الأولى، 1992، ص 31.

وبهذا تتسم ألفاظ الشاعر بروابط تنظيمية تحول اللغة إلى كائن حي، يخلق بدوره أبعادًا دلالية تعزز شعره بصفة خاصة؛ لأن الكشف عن العنصر الأساسي للنص يمكن أن يعيد الكلمة إلى سياقها، مما يؤدي إلى الوصول إلى مرجعيتها الفكرية على المستوى المعجمي، الذي يضم مجموعة متنوعة من الظواهر النحوية والصرفية وغيرها. وهنا تتبين أهمية المعجم الشعري، الذي يشكل منهج الشاعر في إبداعه الشعري، وطريقة توظيفه للألفاظ هي التي ترسم له أسلوبه ومنهجه الخاص، و"المعجم الذي يستخدمه الشاعر هو من أبرز الخواص الأسلوبية الدالة عليه، والمبينة عن سر صناعة الإنشاء عنده"[10].

وإذن، يمكننا أن نلحظ مما سبق، أن كل شاعر يمتلك معجمه اللغوي الذي يميز هويته ويكشف عن طريقته في التعبير عن مشاعره وانفعالاته داخل بيئته. وذلك لأن كل لفظة في النص الشعري تشكل بنية أساسية في البناء الكلي الذي يشكل النص، ولها معنى محدد بناءً على التركيب يبدعه الشاعر. وبهذا السياق، يصبح معجم الشاعر الشعري عالمه اللغوي الخاص الذي يكشف عن ثقافته بجميع تجلياتها، وهو مخزونه وملخص لتجربته، والمفتاح الشعري لعالمه. والشاعر لما يردد ألفاظا ذات جذر لغوي واحد، فإنه يكشف عن المنبع الذي يستنبط منه مفرداته.

[10] سعد مصلوح: في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 1887م، ص 95.

وقد لاحظ أحد الباحثين المحدثين أن لكل شاعر معجمه الخاص بحسب المقال والمقام، قائلا: "فليس هناك معجم شعري وحيد في كل زمان وفي كل مكان ضمن لغة ما، وإنما هناك معجم شعري متطور محكوم بشروط ذاتية وموضوعية، فالشاعر الواحد نفسه يكون له معاجم بحسب المقال والمقام"[11].

ولدراسة المعجم الشعري لدى شاعر معين، وبيان التحولات الدلالية فيه، اقترح أحد الدارسين المحدثين اتباع منهج يقوم على التقسيم التالي:

- رصد الدلالة الحديثة في لغة الشاعر، مما يتصل بالحياة بجوانبها الفكرية والفنية والمحسوسة.
- تتبع الدلالة في الصور الفنية الحديثة؛ أي أشكالها البلاغية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية.
- رصد الرموز العامة، لما له صلة بالتاريخ الأدبي والاجتماعي التي هي امتداد للأصالة العربية القديمة.
- متابعة الرموز الخاصة؛ وهي الاستعمالات اللغوية – المفردة منها وتركيبها الإضافي و الوصفي ورمزيتها الفنية التي يلح عليها الشاعر سواء كانت مفردات من أصل اشتقاقي واحد، أم كلمات من إطار معين وانفعالات، أو صور للكون، أو رؤى تلوّن الأشياء، ويجب اللجوء هنا إلى التفسير وتأكيده ببيان مدى تكرارها في ديوان الشاعر.[12]

ونخلص من كل ما سبق، إلى أن تجديد النظر في المعجم الشعري ينبغي ألا ينظر إليه على أنه ظاهرة لأداء الكلام فحسب، وإنما هو ظاهرة تطبع بفردية الشاعر وشخصيته، وأنه يتحدد على أنه نمط خاص من

[11] محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د.ت)، ص 62.
[12] فايز الداية: علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1996، ص 443.

المفردات يختارها الشاعر عن وعي وإحساس بوظيفته المتفردة في صياغة مفاهيميه وتصوراته حول الفن والحياة والعالم. إنه منهج الشاعر الخاص به، والذي بدوره يشكل أسلوبه الخاص الذي يتميز به.

كما ينبغي ألا ينظر إلى المعجم الشعري على أنه انعكاس للواقع النفسي فقط، بل انعكاس للواقع الاجتماعي لعصر تأليف النص الإبداعي، وهدا يخالف تلك التصورات والأنظار المعجمية التقليدية التي لم تر المعجم الشعري إلا على أنه انعكاس للشخصية الشاعرية.

2.مفهوم المعجمية Lexicologie:

عرف الدرس اللغوي في العصر الحديث تطورات كبيرة، ترتب عنها كم هائل من المناهج والنظريات والمصطلحات. فقد أثيرت مناقشات كبيرة وخلافات واسعة حول تحديد مفهوم المعجمية وأسسها، لإيجاد حلول ناجعة لحل المشاكل المطروحة على مستوى الدرس اللغوي، إذ يشكل المعجم المكون الأساس المساهم في نقل المعاني ارتباطا بالمكونات الدلالية والصرفية والتركيبية.

ويقوم الاختلاف بين الاتجاهات اللسانية في مفهوم المعجمية Lexicologie، وفي تحديد مستويات الوصف وإجراءات التحليل، فنلاحظ أنه حصل تطور كبير في مفهوم المعجم. وسنبين ذلك من خلال اتجاهين اثنين: أولهما الاتجاه البنيوي، وثانيهما الاتجاه الاجتماعي.

1.2. المعجمية البنيوية:

يندرج تحت هذا الوصف كل الدراسات البنيوية التي حاولت تفسير المعجم تفسيرا داخليا يرتبط باللفظ نفسه. ويمكننا أن نعرض في هذا السياق لمجموعة من الأنظار المعجمية التي تتفق كلها في هذه الخاصية،

رغم أنها تتباين في طريقة تفسيرها للظاهرة المعجمية، ويكاد يلخصها تصور "فرناند دي سوسير" F. Soussure الذي ينظر إلى المعجم على أنه قائمة من المفردات غير المنتظمة انطلاقا من معيار اعتباطية الدلالة، على أساس أن اللغات المعجمية "الألسنية التي بلغت فيها اعتباطية الدلالة حدها الأقصى من الخروج عن كل قانون، على عكس اللغات النحوية التي قدر بأنها تلك التي انخفضت فيها الاعتباطية إلى درجة قصوى[13].

فدي سوسير يركّز كما هو ظاهر – هو وأصحاب هذا الاتجاه – على اعتبار المعجم فرعا من فروع علم النحو، يمده بالعناصر اللغوية ويكشف عن الحالات غير المطردة. وهو تصور سائد في الدراسات البنيوية وتبناه لغويون كثيرون أمثال بلومفيلد Bloomfield وهاريس Haris وغيرهما . ويقوم هذا التصور على أن المعجم قائمة تفتقد لسمة النسقية، مستدلين بأن الكلمة لا تتوافر على معنى خاص، لأن معانيها تتعدد وتتنوع بتنوع الاستعمالات[14]. ويمكن أن نستنتج من هذا التصنيف أنه لا ينظر إلى طبيعة الأشياء التي تعنيها الكلمات، بقدر ما ينظر إلى مواقع الكلمات داخل السياق الجملي.

ويتفق مع هذا الرأي تمام حسان الذي يرى أن "المعجم على رغم كونه قائمة من الكلمات التي لا تنتظم في نظام معين جزءا من اللغة، من حيث يمد اللغة بمادة عملها وهي الكلمات المختزنة في ذاكرة المجتمع"[15]. ويجدر أن نشير إلى أن تمام حسان رجع في مرحلة لاحقة إلى إعادة النظر في رأيه، ليتبنى الطرح الذي يفيد

[13] F. Soussur: Cours de linguistique générale, p : 37

[14] حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، مفاهيم ونماذج تمثيلية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011، ص 14.

[15] تمام حسان: اللغة العربية، معناها ومبناها، ص 312.

بأن المعجم "نظام إذا قامت علاقة تكافل بين مكوناته، بحيث يتوقف أداء كل منهما لوظيفته على طبيعة الآخر"[16].

وتعترض هذا الفهم عدة إشكالات تتمثل في بيان العلاقات التي تترابط بها محتويات المعجم ومكوناته، وكيف تتحدد هذه العلاقات المعجمية، وكيف يمكن الكشف عن الوظائف والبنيات.

إن تحليل الوحدة المعجمية إلى سماتها الدلالية الصغرى، هو ما جعل وينريش Weinrich (1963) وهيلمسيلف Hjelmeslev (1968) يعدلان عن مفهوم القائمة إلى مفهوم النسق، حيث اعتبرا المعجم نسق تضاد على شاكلة نسق الصوت، إلا أن تعميم النماذج الصوتية على الوحدات المعجمية لم يخل من هفوات على اعتبار التعقيد غير المتناهي للعلاقات المعجمية، عكس الدراسة الصوتية المحدودة[17].

لذا حاول بعض اللسانيين[18] تجاوز هذا المشكل المطروح بالنسبة للعلاقات المعجمية، وذلك عبر طرح مفهومي "الحقل المفهومي" و"الحقل المعجمي"، حيث دعا إلى دراسة المعجم دراسة لسانية بنيوية، باعتبار مفهوم "الحقل المفهومي" في علاقاته مع المتضادات اللسانية، إلا أن عدم اقتصار البنيات على علاقات التضاد فقط، جعله ينسبه إلى صعوبة قياس الحقول المعجمية على أنواع التقابلات الصواتية[19].

---

[16] تمام حسان: مقالات في اللغة والأدب، ص 87.

[17] المرجع نفسه، ص 17.

[18] مثل اللساني كوزيران Coserin في أعماله: "من أجل دلالة تاريخية بنيوية" و"البنية المعجمية واللغة السياسية والاجتماعية"، نقلا عن: حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، ص 18.

[19] حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، ص 17-18.

كما اقترح اللغوي دي بوا "الحقل المعجمي" في فترة زمنية محددة، على اعتبار أن علاقات الاشتراك والتضاد تتبدل باستمرار، وبالتالي فإن الوظائف والبنيات تخضع للتبدل أيضا[20].

فالاتجاه البنيوي إذن، ينظر إلى المعجم من زاويتين متباينتين: أولهما تعتبر المعجم قائمة من المفردات التي تنتمي إلى طبقة لغوية منفتحة، وثانيهما تعتبره نسقا من الكلمات يضمها المعجم باعتباره مكانا لغويا محققا بالقوة، وذلك على عكس سلسلة الملفوظات؛ فهي إمكان لغوي محقق بالفعل، مما جعله يحصر مجال الدراسة المعجمية فيما هو محقق ومحدود، لا فيما هو ممكن ولا نهائي.

1.3. المعجمية الاجتماعية:

منذ القرن الثامن عشر لاحظ بعض الاجتماعيين الفرنسيين مثل المفكر الموسوعي دنيس ديدرو D. Diderot الذي أسس لهذه المقاربة، أن الألفاظ هي انعكاس متماسك لجل معارف المجتمعات، حيث يرى أن "اللغة هي التي تمد مجتمع من المجتمعات بمفرداته، وهذه المفردات هي قائمة آمنة تحفظ معارف هذا المجتمع، وبالاستناد إلى المقارنة فحسب بين مفردات أمة خلال أزمنة مختلفة، يمكن أن تتشكل لدينا فكرة عن فترات تقدم هذه الأمة"[21].

ولكن بالرغم من ذلك، ظلت المفردات تدرس في اللسانيات البنيوية معزولة عن استعمالاتها، ففتحت المعجمية الاجتماعية من جديد المجال لدراسة المفردات في سياق استعمالها داخل المجتمع الذي نشأت فيه.

[20] حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، ص 18.

[21] Diderot, d'Alembert: l'Encyclopédie, ou Dictionnaire Raisonné des sciences, des atrs et des métiers, Tome V, pub 1751-1780, Inter-livres (Paris), 1755, p : 637.

وبهذا يمكننا أن نعد المعجمية الاجتماعية ردة فعل على المعجمية البنيوية. بحيث إن "في اللسانيات الاجتماعية آفاق كثيرة للمعجم، سعت المعجمية الاجتماعية إلى استثمارها"[22].

ومن الداعين أيضا إلى مزج علم الاجتماع بالمعجمية، نجد اللساني الاجتماعي الفرنسي "جورج ماطوري" G. Mathoré الذي دعا إلى تدارك إهمال الاتجاه البنيوي دور المجتمع في حياة الألفاظ، نظرا لاعتباره عنصرا أساسا من عناصر الألفاظ. ومعنى ذلك، أن العناية بدور المجتمع في حياة الألفاظ، سيفتح أمام المعجمية مجالات جديدة للثراء . وتنهض المعجمية الاجتماعية على أفكار أغفلتها الدراسات البنيوية، مثل فكرة السياق والمقام، والنظر إلى اللغة باعتبارها سلوكا اجتماعيا وليس نظاما شكليا، وهذا ما أنجزته كثير من الدراسات المعجمية التي نصنفها هنا بأنها اجتماعية.

لهذا فقد عني "ج. ماطوري" G. Mathoré في كتابه: La Méthode en lexicologie بدراسة المعجم من زاوية اجتماعية، ودراسة المجتمع بأدوات لغوية معجمية، أي الكلمات، التي اعتبرها مرآة تعكس أفعال المجتمع وظواهره، فأقر بوجود علاقة مشتركة بين دراسة المفردات والمجتمع، هذا ما اصطلح عليه بمنهج "المعجمية الاجتماعية" . ولهذا صرح ماطوري أن منهجه هذا يعد أداة فعالة من أدوات البحث الاجتماعي، ذلك أن دراسة المفردات إنما هو في الوقت نفسه دراسة لمجتمع معين، لأن الكلمات "لها وجود مجتمعي، وهي قبل كل شيء فعل اجتماعي"[23].

---

[22] محمد رشاد الحمزاوي، المعجم العربي المعاصر في نظر المعجمية الحديثة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 78، الجزء 4، أبريل 2003، ص 1052.

[23] جورج ماطوري: منهج المعجمية، ترجمة عبد العلي الودغيري، منشورات كلية الآداب بالرباط – المغرب، ط 1، 1970، ص 76.

لقد اهتم ماطوري في معجميته على العلاقات القائمة بين الألفاظ. فاللغة عنده نظام فكري قبل كل شيء، والفرق بين الألسنة هو أن اللغة تحدد نمط الفكر، أو رؤية العالم للمجتمع الذي يوظفها . وفي هذا تجاوز واضح لمفهوم المعجم عند البنيويين لمحدوديته والحاجة إلى النظر إلى المعجم باعتباره ظاهرة إنسانية تقوم بتفسير سلوكات وتحولات المجتمع؛ فاللسانيات تنتمي إلى علوم الإنسان. وبالتالي فإن المعجمية عنده تركيبية تفسيرية وليست معجمية تحليلية"[24].

وعلى الرغم من مهاجمة ماطوري للاتجاه البنيوي، فإنه لم ينف عن نفسه صفة الباحث البنيوي، لكنه صنف نفسه ضمن البنيوي المتفتح قائلا: "البنيويون الحقيقيون هم نحن، نحن الذين نطبق بنيوية متفتحة تهتم بالنتائج أكثر من اهتمامها بمسلمات سوسيرية، عبقرية حقا، ولكن بعض الأمور المترتبة عنها أصبحت محل إعراض أو متجاوزة"[25].

فقد بدأت المعجمية إذن تُعنى بدراسة وتفسير أفعال المجتمع، اعتمادا على أفعال المفردات، التي هي انعكاس له. أطلق عليها ماطوري تسميات عديدة منها: معجمية الكلمات، المعجمية المتفتحة، معجمية الكلمة، معجمية الحقول. ولهذا يعد ماطوري من بين اللغويين الذين اهتموا بفكرة تصنيف المعجم إلى حقول أثناء دراسته، وهي فكرة دعا إليها قبله – على حد قوله – علماء ألمان من مثل إبسن وترير وغيرهما، وقد عملوا على الانتقال بالدراسة اللغوية من البحث في تاريخ الكلمة إلى البحث في مجالات استعمالها"[26].

[24] جورج ماطوري: منهج المعجمية، مقدمة الكتاب، ص 9.
[25] جورج ماطوري: منهج المعجمية، مقدمة الطبعة الثانية، ص 44.
[26] جورج ماطوري: منهج المعجمية، مقدمة الكتاب، ص 6.

نلمح من خلال منهجية هذا الاتجاه، أن هناك علاقة حميمية بين المعجمية وعلم الاجتماع، ولهذا أصر أصحابه في دراستهم للمفردات على ضرورة الاستفادة من علم الاجتماع، وكذا العلوم الأخرى المجاورة، كما اتفقوا على ضرورة مراعاة السياق الذي ترد فيه الكلمات[27]، لأنه كي تفهم معنى كلمة، يجب أن تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا . ذلك أن معاني المعجم تنقسم إلى قسمين، معاني وظيفية ومعاني معجمية، تتضافر معا لتكشف عن المعنى الذي تدل عليه الكلمة المفردة من جهة، وتقوم عليه وظيفة المعجم من جهة ثانية[28] . وإن الاختيارات المعجمية لا تحكمها البنية اللغوية الخالصة فحسب، بل تحكمها كذلك محددات السياق، ناهيك عن الظرف الاجتماعي الذي سيقت في إطاره المفردات .

وسيكون هم المعجمية–الاجتماعية ليس طرح إشكالية المعنى وعلاقته بالنحو فحسب، بل يتجاوزه أيضا إلى انعكاس هذا المعنى على مستوى الحياة الاجتماعية والبراغماتية، ويؤخذ على اللسانيات أنها منهج داخلي يعتمد في تفسير المتغيرات اللغوية على ظواهر لغوية محضة . وبعبارة أدق، فإن اللسانيات الاجتماعية تولي أهمية بالغة للسياق الذي يحدث في التواصل .

ولهذا لاحظ أحد الدارسين المحدثين وهو محمد رشاد الحمزاوي أنه من المفيد جدا أن تتبنى المعجمية مفاهيم وأدوات علم الاجتماع، لأن ذلك سيؤدي إلى إخصابها وإثرائها، وذلك من خلال ربط المفردات

---

[27] جورج ماطوري: منهج المعجمية، ص 80.

[28] حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، مفاهيم ونماذج تمثيلية، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، 2011، ص 15.

بالمجتمع وببيئية المبدع. وقد استعرض في هذا السياق مناهج متعددة جاءت بها المعجمية الاجتماعية[29]، منها العناية بـ:

- الأحداث التاريخية وبالأحرى السياسية والحضارية، وما ينشأ من رؤى ومفاهيم تعبر عن تغيرات عميقة.
- جدل الأجيال على أساس أن مفاهيمها وصراعاتها كثيرا ما تتولد عنها لغة بل لغات لها خصائصها ورؤاها وخياراتها ومفاهيمها التي هي في تطور مستمر.
- الكلمات الشاهدة على زمانها، وهي كلمات ومفاهيم ليست مطردة بالضرورة، فهي كلمات تتميز بوزنها/ثقلها المعجمي على غرار الوزن الذري للمادة؛ لأنها الشعار المادي المعبر عن حدث فكري واجتماعي يجسم حدثا حضاريا.
- الكلمات المفاتيح، وهي الكلمات بأنواعها البسيطة والمركبة والمعقدة التي ترمز إلى مثل اجتماعي أعلى، تختص به حقبة أو مجتمع معين، وهي تعبر عن مبادئ، وعقائديات ومذهبيات من شأنها أن تدل على تغيرات في كيان المجتمع سلبا أو إيجابا.

ويشير الحمزاوي في هذا الصدد إلى أن هذه المناهج تسعى إلى استقراء اللغة ارتباطا بشرائحها الاجتماعية، فضلا عما تتميز به تلك اللغة من مواصفات وخصائص مشتركة أو مختلفة أو متنافرة في مستوى شرائحها الاجتماعية المعنيّة[30].

---

[29] محمد رشاد الحمزاوي، المعجم العربي المعاصر في نظر المعجمية الحديثة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 78، الجزء 4، أبريل 2003، ص 1053.

[30] محمد رشاد الحمزاوي، المعجم العربي المعاصر في نظر المعجمية الحديثة، ص 1052.

فالمعجمية إذن، يمكننا اعتبارها علما مستقلا بذاته، ولكن ليس بالمعنى الذي حدده سوسير ومدرسته التي اعتبرت التغيرات المجتمعية خارجة عن موضوع الدراسة، بينما تعتبر المعجمية هذه التغيرات بالذات هي الموضوع الذي تبحث فيه[31]. وبهذا تخرج المعجمية من إسار الشكلية والنظرة الداخلية المغلقة التي تستمد أسسها من البنيوية، إلى درجة أن أعم اتجاه في المعجمية المعاصرة هو الاتجاه السوسيولغوي.

3. الدراسة المعجمية للشعر (مفهومها وحدودها):

عرضنا فيما سلف، للمعرفة الحديثة التي يمكن أن تكون مدخلا جديدا لدراسة الشعر العربي، إلى تبين العلاقة الحميمية القائمة بين الشعر والمعجمية. كما انتهينا إلى إثبات صفة للمعجمية هي التحليلية. ومن خلال نظرة في المعجمية الاجتماعية، نثبت للمعجمية صفة ثانية وهي الصفة التفسيرية التركيبية. فاللغويون الاجتماعيون يجمعون على أن المعجمية علم مجتمعيّ يستعمل الأدوات اللسانيّة التي هي الكلمات، لتحليل وتفسير المجتمع انطلاقًا من مفردات لغته.

ولعل الفائدة الكبيرة للتطورات اللسانية المعاصرة تكمن في أنها تقدم لنا إمكانات واسعة ووسائل ناجعة في قراءة تراثنا الأدبي وفهمه، وقد كان للسانيات الاجتماعية أثر كبير في هذا الاتجاه، أي إعادة اكتشاف التراث الشعري العربي بوسائل أفيد وفهم أعمق.

ويقتضي هذا أن نحدد مفهوم "الدراسة المعجمية للشعر"، بعد أن ثبت لنا أن البحث المعجمي يقوم في جملته على درس الدلالة، فقد لاحظ اللغويون أن قسما من المعجمية يعنى أساسا بدلالة الألفاظ في علاقتها

[31] جورج ماطوري: منهج المعجمية، ص 110-111.

بالجانب الاجتماعي والسياق، وهو ما أطلق عليه ج. ماطوري مصطلح "المعجمية الاجتماعية" ولعله من أهم مباحث المعجمية الحديثة.

يعرف الودغيري الدراسة المعجمية بأنها "علم يهتم بدراسة البنية الشكلية للوحدات المعجمية من حيث صيغتها، أو أصلها الاشتقاقي، أو عناصرها المكونة لها من ناحية، ويهتم من ناحية أخرى بالجانب الدلالي، فيدرس هذه الوحدات من حيث دلالتها المعجمية العامة، ودلالتها الخاصة التي تكتسبها بالتطور أو بالاستخدام في المجالات والحقول المختلفة، ويهتم بالخصوص بدراسة اللفظ في علاقته بغيره من الألفاظ كعلاقة الترادف أو التضاد أو الاشتراك، وغير ذلك من الموضوعات الشبيهة بما ذكر"[32].

يفهم مما سلف، أن الدراسة المعجمية تنحصر في دراسة البنيات الشكلية للوحدات اللغوية، والبحث في قضايا الدلالية، سواء تعلق الأمر بالدلالات العامة المتواطأ عليها، أو الدلالات الخاصة التي تكتسبها بفعل الاستعمالات الخاصة.

ويتفق هذا مع ما يذهب إليه اللغويون الاجتماعيون عموما من أن الدراسة المعجمية تعكس إلى حد بعيد الانتقال من دراسة المفردات إلى دراسة نسق العلائق النحوية والدلالية والتركيبية والمعجمية بين الوحدات اللغوية، بحيث تسعى إلى دراسة المفردات والعلاقات التي قد تدخل فيها، وتبيان هيئات هذه المفردات، والمعاني التي قد تتولد عن هذه الألفاظ بعدما تلحقها اللواحق الصرفية، أو تدخل في عمليات تركيبية. فالمعجمية تشمل كل ما يتعلق بعلم الألفاظ وحقولها الدلالية.

[32] عبد العلي الودغيري: قضايا المعجم العربي في كتاب ابن الطيب الشرقي، 1989، ص 4.

ويؤكد لنا هذا ما سبق أن ذكرناه من أن المعجمية درس تركيبي تفسيري، ولم يغفل اللغويون عن أن دراسة معاني الألفاظ مرتبطة بالتركيب اللغوي، "حيث نجد إرهاصاتها في منجزات اللغويين القدامى عندما كانوا يتناولون عالم الألفاظ، لأن فلسفة اللغة وما يتعلق بالمعنى كان محوره الأساسي في كل اللغات يدور حول المفردة"[33].

بناء على ما سبق، فإن ما نعنيه بمصطلح "الدراسة المعجمية للشعر" هو علاقة المعجم اللغوي الشعري بمقاصد الشاعر في مجتمع وسياق محددين؛ أي النظر إلى المعجم الشعري باعتباره ظاهرة إنسانية تقوم بتفسير سلوكات وتحولات المجتمع. وفي هذه الدراسة سيتم الربط بين المعجم الشعري والجانب الاجتماعي والسياق، عبر الاشتغال على الكيفية التي يعكس بها المعجم اللغوي للشاعر كثيرا من جوانب الحياة الفكرية والعقلية والحضارية للمجتمع العربي.

ولدراسة المعجم اللغوي للشاعر إذن، يقتضي الأمر دراسته من زاويتين اثنتين: أولاهما تتعلق بالجانب اللساني، وثانيهما ترتبط بعلاقة الألفاظ والمفردات اللغوية بالمجتمع العربي، مع مراعاة خصوصيات الزمان والمكان، وذلك بالانطلاق في هذا المسعى من أن للشاعر معجمه الخاص وأسلوبه الخاص، بل منهجه الخاص في التعامل مع الرصيد اللغوي الذي يكون متداولا في مرحلة من مراحل تطور المجتمع والإبداع الشعري، فالشاعر له معجمه الشعري الذي يختاره عن وعي وإحساس بوظيفته المتفردة في صياغة مفاهيمه وتصوراته حول الفن والحياة والعالم.

---

[33] عبد الغني أبو العزم: تطور المصطلحات المعجمية والمعجماتية وإشكالية الوضع والترجمة، 2004، ص 4.

كما تقوم "الدراسة المعجمية للشعر" على دراسة المعجم الشعري في علاقاته المتواشجة بالتركيب النحوي والبلاغي والإيقاعي، بما يفيد تداخل العناصر وتكاملها جميعا، من أجل تقديم المعاني وبناء الدلالات في الخطاب، ومن ثم النظر في تلك الألفاظ/المفردات؛ أي في معجم الشاعر على أنها رموز للثقافة من جهة أنها هي التي ترسم الصورة التي تجزئ بها اللغة، ومن ثمة الشاعر والعالم والوجود، لأنه ليس هناك طريق إلى تشيئ الكون والفكر والثقافة والأحاسيس إلا عبر هذه اللغة، وعن طريق هذه المفردات التي يوظفها الشاعر، لأنها هي التي تجسد أثر الخارج والداخل على لغة الشاعر، ومعلوم أن الشاعر إنما يختار هذه المفردات اختيارا واعيا مقصودا لنقل تجربته الشعورية بطريقة لا يمكنها أن تتكرر في شعره من قصيدة لأخرى.

ويتبين في أشعار الشعراء ما يؤكد عناية الشاعر العربي بالجانب الاجتماعي والسياق في إبداعه الشعري، بحيث لا يكتفي في فهمه للشعر النظر في المعاني المعجمية المباشرة لألفاظه، وإنما كان يبحث كذلك في المعاني التي تكتسبها تلك الألفاظ في سياقها . ويجدر أن نلاحظ في هذا الصدد، أن ربط المعجمية بعلم الاجتماع والسياق قد أثرى الدرس اللغوي والأدبي وفتح مجالات جديدة ومفيدة لدراسة الخطاب الأدبي دراسة تطمح إلى مستويات أعلى من العلمية والدقة والموضوعية.

لائحة المصادروالمراجع

- عبد الغني أبو العزم: تطور المصطلحات المعجمية والمعجماتية وإشكالية الوضع والترجمة، 2004.
- عبد العلي الودغيري: قضايا المعجم العربي في كتاب ابن الطيب الشرقي، 1989.
- محمد رشـــاد الحمزاوي، المعجم العربي المعاصـــر في نظر المعجمية الحديثة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 78، الجزء 4، أبريل 2003.
- حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، مفاهيم ونماذج تمثيلية، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، 2011.
- جورج ماطوري: منهج المعجمية، ترجمة عبد العلي الودغيري، منشـــورات كلية الآداب بالرباط – المغرب، ط 1، 1970.
- حسن حمائز: التنظير المعجمي والتنمية المعجمية في اللسانيات المعاصرة، مفاهيم ونماذج تمثيلية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011.
- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د.ت).
- فايز الداية: علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1996.
- سعد مصلوح: في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 1887م.
- جون كوين: بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1990، القاهرة.
- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1980.
- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، (د.ت).
- الجاحظ: الحيوان، (حظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس)، مج 2 الجزء 3، ت. عبد الســـلام هارون، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن رشـيق القيرواني: العمدة في محاسـن الشـعر وآدابه ونقده، (باب في اللفظ والمعنى)، ت. محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط2، 1955.
- Diderot, d'Alembert: l'Encyclopédie, ou Dictionnaire Raisonné des sciences, des atrs et des métiers, Tome V, pub 1751-1780, Inter-livres (Paris), 1755.
- F. Soussur: Cours de linguistique générale.